نهرا ابانا وفرفار بدمشق

طال الخلاف حتى اليوم في تعريف نهرَي « ابانا » و « فرفار » اللذين افتخر بهما تمان السرياني في سفر الملوك الثاني . وفي كتاب الخطط التاريخية في سورية للعالم الاثري رينه دوسّو ان نهر ابانا هو نهر بردى . ونهر فرفار هو نهر الاعوج .[1] ولكن من اعتبر تشابه اسمَي ابانا وباناس يترجح فورًا لديه انهما لمسمًى واحد. ولا شك ان لفظة باناس هي رومية الاصل (Abanus) تلقّاها العرب عن البيزنطيين واسقطوا الالف الاولى منها تخفيفاً بحيث دخلت في الاوزان العربية مثل ساباط وهي السقيفة بين دارَين تحتها الطريق . ولا يعترض على ذلك ان النهر سُمّي ايضاً بانياس بزيادة ياء . فان هذه التسمية لم ترد الا متأخرة . وقد انكرها صاحب « مراصد الاطلاع » فقال : « الصواب بغير ياء في النهر . وهو بالياء اسم لقرية او بلدة قرب دمشق تحت الجبل في غربي دمشق يرى عليه الثلج ».[2] ويظهر ان النهر لم يغلب عليه اسم بانياس الا حوالي القرن التاسع للهجرة . وغاية ما وقفنا عليه في الشعر بيت واحد للشيخ شعبان الآثاري وفيه تورية الى انهار دمشق :

شوقي يزيد وقلب الصب ما بردا وبانَياس من المشوق حين بدا [3]

واما قبل ذلك فلم يُنقل الا اسم باناس وحده في النثر والنظم . قال ياقوت في كلامه على نهر بردى :

«واما باناس فانه يدخل الى وسط مدينة دمشق فيكون منه بعض مياه قَنَواتها وتساطلها . وينفصل باقيه فيسقي زروعها من جهة الباب الصغير والشرقي »[4] .

وقال شهاب الدين العمري في وصف انهار مسقط رأسه :

« فاما القنوات وباناس فهما نهرا المدينة . حاكمان عليهما ومسلطان على ديارها . يدخل باناس القلعة بها ثم ينقسم قسمين . قسم للجامع . وقسم للقلعة .

١) R. Dusseau, *Topographie de la Syrie Historique*, p p 313 et 288

٢) مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ١ : ١٢٢

٣) نزهة الانام في محاسن الشام للبدري ، ص ٩٤

٤) معجم البلدان ، طبعة اروبة ، ١ : ٥٥٧

ثم ينقسم كل قسم منهما على تقاسيم تتفرق على اصابع في المدينة باصابع مقسومة وحتوق معلومة . . . ثم تتجمع وتتنهّر وتخرج الى ظاهر المدينة لسقي الغيطان ».[1]

واكثر ما جاء باناس في الشعر . ولا بأس ان نتوسع قليلًا في الاستشهاد عليه . قال العماد الكاتب الاصبهاني مشيرًا الى الانهار الاربعة :

الى ناس باناس لي صبوة ... لها داعٍ وذكرى مثير
يزيد اشتياقي وينمو كما ... يزيد يزيدُ وثورا يثور
ومن بردى برد قلبي المشو ... ق، فها انا من حرّه مستجير [2]

واقتدى به الامير سيف الدين علي بن قزل المشدّ فقال في مدح دمشق :

واضارها اربع كلها ... تسيل لُجينًا وتجري ذهب
يزيد جا الماء من طيبه ... وحسبك ثورا ببنت العنب
ترى بردا عملًا حاريًا ... وباناسها لبنًا يُحتلب

ولشهاب الدين التلعفري :

فاقت دمشق على البلاد فقدست ... عن شعب بوّان وعن قُطربُّل
فليهنها باناس اعذب مورد ... من ماء دجلة والفرات السلسل

وله ايضًا : وراق مآوك، يا ثورا، ولا برحت ... تميل فوقك بالاطيار افنان
ودام رفدك، يا باناس، متصلًا ... حتى يُرى كل ظام وهو ريّان

وله كذلك : ولا عدتك، يا باناس، منهمر ... جمي على القصر والميدان والشرف

ولتاج الملوك بوري بن ايوب :

وبباناس زاد وجدي فقلبي ... مستهام اليه ولهان ظامي

ولابن عُنَين الدمشقي :

ويا حبذا الوادي اذا ما تدفقت ... جداول باناس اليه تسيل

ولابن الظهير الحنفي الاربلي :

ايا ليت شعري هل يلوح لمقلتي ... سنير، وظني باللقاء محقق
وهل بارد من ماء باناس بارد ... لظى كبد حرّى لها الشوق محرق

ولتاج الدين الصرخدي :

اقرّ السلام على الوادي وسرحته ... وحيّ باناسها عني فتحييني

ولمحاسن الشرا الحلبي :

---

١) مسالك الابصار . خزانة باريس ٢٣٢٥

٢) معجم البلدان ، طبعة اروبة ، ١ : ٥٥٧

يا رياضاً ما بين ثورا وبا نامَ تردت على الشقائق حمرا

ولقلجق الحمصي :

ثاو يثور له الى ثورا جوىً ويزيد منه الى يزيد حنين
بالناس لا باناس امسى قصده ومراده الغُطّان لا قيطون

وهذه المدائح كلها من القرن السادس الى القرن الثامن للهجرة . ومنها يُدرك السبب الذي حدا نعمان السرياني الى ايثار مياه مدينته. وكفى بها دليلاً لاثبات ان باناس الكتاب والشعراء هو اباناس التوراة . فلا يبقى من ثم الا اطلاق اسم فرفار على نهر بردى وهما النهران اللذان كانا يتساوقان لريّ دمشق. ومن معاني الفرفار حتى في اللغة العربية « الطيّاش . والمكثار . والذي يكسر كل شيء . » فلعل بردى أُتّب به قديماً في ايام الاراميين لتدفق مياهه وثورانها واجترافها كل ما يحول دون مجراها .

وروى ياقوت ان بردى كان يقال له ايضاً بَرَدَيا ولم يؤيده بشاهد واحد . ولا يبعد ان يكون من تحريف النساخ . وقد اتفق له غير مرة ان يُخدع بسوء نقلهم كرواية دير بَوَنّى بالباء الموحدة بدلاً من يُوَنّى بالياء المثناة . وتلبين بالتاء بدلاً من تُلبين بالقاف اسم قرية بدمشق. ودير أيّا بفتح اوله والياء المثناة وهو دير لم نسمع به ولم يرد فيه قول لاحد ويشبه ان يكون تحريف داريّا من امهات قرى دمشق .

وكان البيزنطيون يسمون بردى Chrysorrhoas اي نهر الذهب. ودعاه اسطفان البيزنطي منذ القرن الخامس للميلاد بَرْدينس Bardinès ولا شك ان اللفظ العربي مأخوذ منه . واياه عنى حسّان بن ثابت بقوله في مدح آل جفنة :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يُصفّق بالرحيق السلسل

واول من ارتأى ، فيما نعلم ، ان ابانا التوراة هو نهر باناس الآباء الصوديّون في « دليل فلسطين ».[1] وتابعهم الاستاذ المستشرق جان سوفاجه في مقالته :

(٢ Jean Sauvaget. *Esquisse d'une histoire de la ville de Damas.*

(١ *La Palestine. Guide historique et pratique*, 2e édition. Paris, 1912, p. 546.

(٢ *Revue des Études Islamiques*, 1934, cahier IV, p. 432. وتعريبها في المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٦١–٢٠٨